تراث الإنسانية

فصول فى النقد

لماثيو أرنولد



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

على أدهم

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

فصول فى النقد

لماثيو أرنولد



على أدهم



مهرجان القراءة للجميع ٩٤
مكتبة الأسرة
(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى
مراد نسيم
أحمد صليحة

المشرف العام
د . سمير سرحان

فصول فى النقد

للشاعر الناقد ماثيو أرنولد

بقلم : الأستاذ على أدهم

مقدمة :

ماثيو أرنولد أحد الشعراء البريطانيين المبرزين فى القرن التاسع عشر، ومن أشهر النقاد فى تاريخ الأدب الانجليزي، وقد أثر فى أدب عصره - وهو العصر الفكتوري - تأثيرا ملحوظا، ولا تزال آراؤه فى النقد الأدبى موضع اهتمام النقاد المحدثين، سواء من وافقوه في الكثير من آرائه وأخذوا بأحكامه ، أو من خالفوه في الكثير من اتجاهاته، ونقضوا آراءه وأبطلوا جانبا من أفكاره.

ولم يكن أرنولد شاعرا وناقدا فحسب ، وإنما كان كذلك معلما مرشدا، ومربيا مصلحا، له آراء اجتماعية

ودينية وسياسية مأثورة، وكانت مواهبه المختلفة يمد بعضها بعضا، فكان الشاعر فيه يلهم الناقد، وكان الجانب النقدي فيه يعين الشاعر على تفهم جوهر الشعر، وكان المربي فيه يناصر المصلح، والمفكر الحكيم يعين المعلم الممتاز، مما جعل الرجل طرازا فذا في الشخصيات التي لمعت في العصر الفكتوري من أمثال كارلايل وماكولي وتيسون وبراوننج وولتر باتر وغيرهم من أعلام ذلك العصر في مختلف النواحي الثقافية، وقد عني مؤرخو الأدب باستقصاء أخباره، ومعرفة ملابسات حياته، كما عنى النقاد على اختلاف مذاهبهم وتنوع اتجاهاتهم وتباين الأصول الجمالية التي وصلوا بها آراءهم بمناقشة آرائه والعناية بأحكامه ، كما شغل الباحثون في المشكلات الاجتماعية والدينية بالرجوع الى آرائه في أمثال هذه الموضوعات ، وعرضها على محك النقد، وغربلتها لبيان صحيحها من زائفها، قال عنه الناقد المعروف ت. س. اليوت في كتابه عن الشعر والنقد (١) اذا كانت المتعة التي نستمدها من كتابات أرنولد نثرا وشعرا معتدلة فانه مع ذلك من بعض الوجوه أصلح كتاب عصره.

(١) صفحة ١٠٤ من كتاب «الشعر والنثر».

وفي الجزئين اللذين جمع فيهما الفصول التي كتبها في النقد الأدبي دراسات عن أدباء الانجليز وغير الانجليز، تناولهم فيها ارنولد تناولا مستنيرا في وضوح وهدوء، وإشارات كاشفة، وملاحظات قيمة، وبيان لخصائص كل مؤلف وسماته النفسية. وهو في كل فصل منها يغوص على الحقائق التي يمكن الانتفاع بها في الدلالة على أحوال الشخصية التي يتحدث عنها، والدوافع التي كانت تعمل وراء إنتاجها الأدبي وآثارها الفنية، وهو يعمل على إظهار العلاقة بين هذه الأحوال النفسية والمزايا أو العيوب التي تبدو في الأعمال الأدبية، وهو بذلك يقدم للقارئ أساسا من المعلومات الممحصة ، والالتفاتات البارعة، تمكنه من أن يقرأ المؤلفات التي يتحدث عنها في تقدير وفهم. وهو في خلال هذه الدارسات المتعة يقدم بطريقة غير مباشرة مبادئه في النقد الأدبي ، ومنهجه في الدراسات الأدبية في لباقة وهدوء وشيئ من السخرية المستساغة، ويمتاز نقده بوجه عام بالنفاذ والألمعية، وقد أقنع جمهور القراء البريطاني بأن النقد الجيد له أهمية التأليف والخلق الممتازين ، وأنه ليس مجرد احتكام الى الذوق والرأي الشخصي. وإنما هو ثمرة الذوق الذي صقله الاطلاع

الواسع، والتهذيب المتواصل، وكان يعد سانت بيف وجيني أستاذيه القديرين في النقد الأدبي.

سيرته :

ولد ماثيو أرنولد في ليلهام Lalcham القريبة من ستينز Staines في مقاطعة ميدلكس Middlesex بانجلترا في مساء عيد ميلاد سنة ١٨٢٢، وكان والده الدكتور توماس أرنولد ناظر مدرسة رجبي المشهورة وقد رزق تسعة من الأولاد كان أكبرهم ماثيو، ولم يحصل توماس أرنولد على لقب دكتور إلا في سنة ١٨٢٨ حينما وقع عليه الاختيار ليكون ناظرا لمدرسة رجبي، وفي سنة ١٨٢٢ كان يلقي دروسا خاصة على فريق من الطلبة وكون في تلك الاثناء نظرياته في التربية التي اشتهر بها بعد ذلك، وكانت زوجته السيدة ماري بنروز Mary Penrose; معروفة بقوة الاخلاق والامتياز الفكري، وكان ولدها ماثيو لا ينقطع في رسائله اليها عن عرض افكاره وملاحظاته عليها الى حين وفاتها سنة ١٨٧٣ وكان ماثيو في الخامسة من عمره حينما انتقلت الاسرة الى رجبي، وفي الثالثة عشرة من عمره أرسل الى ونشستر. وكان ناظر المدرسة الدكتور موبرلي Moberly

أدبيا واسع الاطلاع، وبعد أن قضى سنة في تلك المدرسة أعاده والده الى مدرسة رجبي ليكون تحت اشرافه، وظل بها حتى سنة ١٨٤١ التي أرسل فيها الى اكسفورد. وقد عرف والده الدكتور توماس ارنولد بالتشدد والصرامة في التربية، وكان يوصف بقوة الاخلاق والشخصية، وكان اطلاعه في الأدب المدرسي واسعا عميقا، وكان له تأثير شديد في نفوس طلبته، وكان اكثرهم يتحدثون عن قوة هذا التأثير حتى بعد تركهم المدرسة وتقدمهم في السن، كما كان معروفا بأسلوبه البارع في الكتابة، وغزارة معلوماته التاريخية، وفي احدى قصائد ماثيو أرنولد يوجه الى أبيه الحديث قائلا : «اذا كانت الاحجار المعترضة في طريق الحياة قد أدمت قدميك، واذا كان مابذل من جهد أو ما ألم بنفسك من اكتئاب قد أضنى روحك فاننا لم نر شيئا من ذلك، ولقد كنت دائما تتلقانا بالبشاشة، وتعيننا وانت جلد صامد ولذلك منحت القدرة على أن تنقذ معك الكثيرين واستطعت ايها الراعي الأمين ان تعود في نهاية اليوم ومعك القطيع الذي توليت حراسته». وقد مات الدكتور توماس ارنولد سنة ١٨٤٢ وكان يتناول المسائل الدينية بصراحة غير معهودة في امثاله من

رجال الدين، كما كان يجيد الالمانية، ولم يكن في طبع ماثيو أرنولد شيء من الصرامة التي عرفت عن ابيه، بل ربما كان فيه من الميل الى الدعابة والسخرية ما جعل العلاقة بينه وبين والده يشوبها تكلف الاحترام والتظاهر بالعطف.

وفي سنة ١٨٤٠ ماثيو أرنولد على منحه دراسية من جامعة أكسفورد، وفي سنة ١٨٤١ ذهب للاقامة هناك والدراسة في كلية باليول، وفي سنة ١٨٤٣ نال جائزة لنظمه قصيدة عن كرومويل، وبعد حصوله على الاجازة من أكسفورد عاد الى مدرسة رجبي مدرسا للأدب المدرسي. وبدأت بذلك علاقته بالتربية التي ظلت متصلة الى ما قبل موته بعامين. وفي سنة ١٨٤٧ صار سكرتيرا خاصا للورد لانزداون Lansdown الذي لعب دورا سياسيا هاما في التاريخ السياسي البريطاني دون أن يرد اسمه كثيرا في الصحف، وكان ميالاً الى تشجيع الشبان الواعدين، ودفعهم الى الأمام، وتهيئة الفرص المناسبة لهم، وبفضل هذا الرجل استطاع ماثيو أرنولد أن يجد الفرصة المناسبة للقيام بدوره في النهوض بمناهج التربية القومية، وكان أرنولد في خلال ذلك دائم الاطلاع على الأدب الالماني والأدب الفرنسي مع الأدب اليوناني والأدب اللاتيني.

وفي سنة ١٨٥١ عين مفتشا للمدارس، وقد احتفظ بهذه الوظيفة خمسا وثلاثين سنة، وكان اختياره لهذه الوظيفة اختيارا موفقا، فقد كان بطبيعته مولعا بالاطفال ويعرف كيف يعاملهم بالغريزة، كما أن كان قد درس التربية دراسة علمية، وكان ارنولد رجلا اجتماعيا، ولكنه لم يكن دنيويا بالمعنى المألوف، ومع شدة شعوره بالواجب كان قليل الطموح قانعا بالمرتب المتواضع الذي كان يتقاضاه لقاء قيامه بالأعمال المجهدة التي كان يفرضها على نفسه، وفي يونيو من السنة نفسها تزوج فرانسس لوسي ويتمان، وكان زواجهما سعيدا موفقا.

وفي سنة ١٨٥٧ عين استاذا للشعر في جامعة اكسفورد، وكان الاختيار لهذا المنصب يستمر خمس سنوات، وقد اعيد اختياره له سنة ١٨٦٢ . وفي خلال هذه الفترة التي استمرت من تلك السنة الى سنة ١٨٦٧ لقي الوزير السياسي الشهير دزرائلي، وكان حينذاك زعيم حزب المحافظين في مجلس النواب البريطاني ، وكان يرتاح الى لقاء الكتاب والأدباء و ويحترمهم ويفخر بأنه من زمرتهم ، وفي هذه المناسبة قال لأرنولد «إن امامك مستقبلا عظيما، وأنت به جدير» وذكر أنه «هجر الأدب لانه لا يستطيع أن يعمل شيئين في وقت واحد

وان كـان يكبـر هؤلاء الذين اسـتطاعـوا ذلك مـثل سشرون».

كتاب «فصول فى النقد» :

فى سنة ١٨٦٥ ظهرت المجموعة الأولى من فصوله فى النقد، وفى الفصل الذى عقده للحديث عن الشاعر الالمانى هينى ضمن هذه المجموعة استعمل لأول مرة كلمة، «فلسطين» وكانت الكلمة تطلق فى الأصل على افراد الشعب المحارب الذى كان يعادى اسرائيل، ولكنها اكتسبت معنى جديدا، وأصبحت تطلق على الانسان المجرد من الشعور الفنى، أما طلاب التغيير ودعاة الاصلاح وممثلو الروح الحديثة فصاروا يرون انفسهم كأنهم من شعب الله المختار، وأنهم أبناء الضوء والاستنارة، وان الذين يناصبونهم العداء ويتصدون لمقاومة اتجاهاتهم ونقض ارائهم هم عبيد «الروتين» وكارهو الضوء وهم يجمعون بين الجمود والغباء ولكنهم فى الوقت نفسه أقوياء ، وأرنولد يستعمل هذه الكلمة قاصدا بها الذين يعادون التجديد الفكرى ويتنكرون للقيم العقلية، وهو يرى أن للأفكار قيمة بغض النظر عن ملاءمتها العملية، وهو يرى أن يكتفى بالأشياء المناسبة

عمليا ولا يحفل بالأفكار من «الفلسطينيين» ، وقد اصبحت هذه الكلمة بعد ذلك كثيرة الورود فى كتابات أرنولد ونقده للمجتمع البريطانى المعاصر له، وصار يقسم الناس إلى المثقفين، وهم أصحاب الاذهان المتفتحة لقبول الافكار الجديدة والقيم العقلية، والفلسطينيين الذين يعادون الأفكار، ويخضعون فى غير تبصر للتقاليد المرعية والعادات القديمة التى أصبحت فى حاجة ماسة إلى التطور والتعديل.

والفصل الذى استهل به ماثيو أرنولد الجزء الأول من هذه المجموعة عنوان «وظيفة النقد فى العصر الحاضر» وفى مطلع هذا الفصل يقول أرنولد «كثير من الاعتراضات وجهت إلى رأى اجترأت على ابدائه فى ملاحظاتى على ترجمة هوميروس، فقد قلت «منذ سنوات عدة اتجه المجهود الرئيسى فى الأدب الفرنسى والأدب الالمانى وفى الحياة العقلية الاوربية بوجه عام الى النقد ،وكانت المحاولات فى كل فروع المعرفة اللاهوتية والفلسفية والتاريخية والفنية والعلمية قائمة على رؤية الأشياء فى ذاتها كما هى فى الواقع» وأضفت إلى ذلك قولى «أنه من جزاء اسباب خاصة فى الأدب الانجليزى فإن آخر شئ يقابله الانسان فى الأدب الانجليزى هو

ذلك الشئ الذى تطلبه اوروبا قبل أى شئ آخر ، وهو النقد، وإن قيمة الأدب الانجليزى وقوته قد لحقهما الضرر نتيجة لذلك ، ونعى على الكثيرون الاهمية التى عزوتها للنقد، وعدوها ضربا من الاسراف فى المبالغة ، واكدوا الاهمية الفطرية فى تفوق القدرة الخلاقة فى الروح الانسانية على قدرتها».

ويقرر أرنولد إن كل أنسان يسلم بإن الموهبة الناقدة أنزل منزلة من القوة الخالقة، ولكن فى الوقت نفسه لا يسلم بان النقد بطبيعته ضار ومعطل، وان الوقت الذى يقضى فى كتابة الفصول الناقدة لا يذهب عبثا، ويؤكد ان وردزورث كان ناقدا عظيما ـ ولم يكن شاعرا فحسب ـ وان جيتى كان من اعظم نقاد الأدب، وأننا جديرون بالتهنئة لانه ترك لنا ذخيرة من الفصول الانتقادية.

ويسترسل أرنولد قائلا : «حقيقة أن القوة الناقدة أنزل منزلة من القوة الخالقة، ولكن فى الموافقة على هذا الرأى لابد لنا ان نضع نصب عيوننا اعتبارين، أولا انه غير منكور ان ممارسة القوة الخالقة أو عملية الخلق الحر هى اسمى وظائف الانسان، والدليل على ذلك ان

الانسان يجد فيها سعادته الحقة، ولكن غير منكور كذلك ان الانسان قد يمارس استعمال هذه القوة الحرة الخالقه فى طرائق أخرى غير خلق طرائف عظيمة فى الأدب أو الفن، واذا لم يكن الأمر كذلك فان جميع الناس اذا استثنينا عددا غير قليل منهم سيكونون محرومين من السعادة الحقة، وهم قد يجدونها فى اتقان العمل ، وقد يجدونها فى تحصيل المعرفة، وقد يجدونها فى النقد وهذا ما يجب أن نضعه فى بالنا، والاعتبار الثانى ان ممارسة القوة الخالقة فى انتاج الطرائف الأدبية أو الفنية العظيمة ليست فى كل الاوقات وشتى الظروف والملابسات من المسائل الميسورة، وقد تضيع الجهود عبثا فى محاولة ممارستها، فى حين ان يمكن الافادة من تلك الجهود المبذولة فى الاعداد لتلك الممارسة، وجعلها ممكنة ميسورة، وهذه القوة الخالقة تعمل بعناصر ومواد، فماذا يكون من الأمر اذا لم تتوفر لها هذه العناصر وتلك المواد؟ فى هذه الحالة لابد لها من الانتظار حتى يتيسر لها ذلك. والآن ـ وسأقصر حديثى على الأدب لان المسألة اثيرت فى مناسبة الحديث عن الأدب ـ اقول ان العناصر التى تعمل بها القوة الخالقة هى الأفكار ، والادب يتناول أحسن الأفكار عن كل شئ

حينما تكون هذه الأفكار شائعة ، ومهما يكن من الامر فانى اقرر أنه من المؤكد انه فى الأدب الحديث لايتسنى لأى مظهر من مظاهر القوة الخالقة أن يكون له اهمية أو ان يؤتى ثمرته ما لم يجد ذخيرة من هذه الأفكار، وأقول ان هذه الأفكار لابد أن تكون شائعة ذائعة لا يمكن الوصول اليها فحسب، وذلك لأن العبقرية الأدبية الخالقة لا تكشف عن نفسها بوجه خاص فى العثور على الأفكار الجديدة، فإن هذا من عمل الفلاسفة ، . والعمل الكبير الذى تقوم به العبقرية الأدبية عمل تركيبى وايضاحى وليس عملا تحليليا أو كشفا، وموهبتها كامنة فى الملكة التى تجعلها تتلقى فى ارتياح الهام الجو العقلى والروحى المكون من نظام معين من الأفكار حينما تجد نفسها محفوفة بها، وهى تتناول هذه الأفكار فى قداسة، وتعرضها ممثلة فى تراكيب شائقة مؤثرة ، وفى ايجاز تخلق منها اعمالا جميلية، ولكن لابد من توفر وجود هذا الجو، ولابد لها ان تجد نفسها فى وسط هذا النظام من الأفكار لكى تعمل فى حرية وانطلاق، وليس من السهل السيطرة على ذلك، ولذلك كانت أوقات العصور الخالقة فى الأدب قليلة نادرة، وهذا كذلك هو السبب فى ان الكثير مما جادت به

قريحة الكثيرين من اصحاب العبقرية الحقيقية لم يجئ وافيا بالغرض، وخلق الطرف الأدبية الممتازة لابد له من التقاء قوتين ، قوة الرجل وقوة العصر، ولا تكفى قوة الرجل بدون قوة العصر.

ويمضى أرنولد فى تأكيد ملاحظته ودعم فكرته فيقول فى هذا الفصل «يستطيع كل انسان ان يرى انه يجب على الشاعر ان يعرف الحياة والدنيا قبل أن يتناولها فى شعره، والحياة والدنيا فى العصور الحديثة شديدتا التعقيد، وخلق الشاعر الحديث لكى يكون له قيمة لابد ان يكون ثمرة مجهود نقدى كبير وإذا لم يكن كذلك فإنه يجئ ركيكا عقيما قليل البقاء، ولهذا السبب كان القليل من شعر بيرون سيقدر له البقاء والكثير من شعر جيتى الذى سيقدر له الدوام، وبيرون وجيتى كلاهما أوتى القدرة المنتجة العظيمة . ولكن جيتى أمدته وغذته حركة انتقادية عظيمة اعدت له المواد الحقة، وبيرون لم يتيسر له ذلك، وقد عرف جيتى الحياة والدنيا وهما الموضوعان اللازمان للشاعر ـ معرفة مستوعبة شاملة أكثر من بيرون.

ويعلل أرنولد أن انبثاق القوة الخالقة فى الأدب الانجليزى فى الربع الأول من القرن التاسع عشر لم

يقترن بحركة فكرية تمده بالأفكار الموحية ، ولذلك جاء انتاج شعراء هذه الفترة ينتقص الكثير فى رأى أرنولد، وبرغم اعجابه الشديد الذى عرف عنه بالشاعر الكبير وردزوورث فانه يقول عنه فى هذا الفصل من المؤكد ان الشئ الوحيد الذى ينقص وردزوورث والذى كان يحمله شاعراً أعظم لو توفر له ـ هو انه كان يجب ان يقرأ كتبا أكثر ، ومما لا شك فيه أنه كان يحسن ان يكون كتب جيتى التى كان يعيبها دون ان يكون قد قرأ شيئا منها ضمن هذه الكتب».

ولكن هل تكفى قراءة الكتب لتزويد العبقريات الخالقة بالأفكار اللازمة ؟ يستدرك أرنولد فى هذا الفصل فيقول «ولكن الحديث عن الكتب والقراءة قد يؤدى فى سهولة الى سوء فهم فى هذا الصدد، والواقع انه لم يكن ينقص شعراءنا فى تلك الفترة الكتب والقراءة، فشلى قد قرأ كثيرا وكولردج كان واسع الاطلاع، ولكنا تنطلق السنتنا قائلين دون أن نفكر قليلا فى اهمية ما نقول ونتبين معناه ان بندار وسوفوكليز لم يكن عندهما الكثير من الكتب، وان شيكسبير لم يكن من المتعمقين فى القراءة، وهذا حق، ولكن بلاد اليونان فى عهد بندار وسوفوكليز وانجلترا فى عهد شيكسبير

كان الشاعر فيهما يعيش فى تيار من الأفكار باعث على الحياة فى اسمى درجاتها، وممد للقوة الخالقة، وكان المجتمع قد غشيته الى اقصى حد الأفكار الحية الشائقة الذكية، وهذه هى الحالة التى تستطيع فيها القوة الخالقة ان تمارس عملها ، اذ تجد الأسس التى تبنى عليها، والمادة اللازمة لها، وجميع الكتب والوان القراءة فى الدنيا ليس لها من قيمة سوى انها تساعد على ذلك، وحينما لا يوجد هذا فى الواقع فان الكتب والقراءة قد تمكن الانسان من ان ينشئ ما يشابه ذلك فى عقله ، أى يوجد عالما من المعرفة والفهم يستطيع ان يعيش فيه ويعمل، على ان هذا بالقياس الى الفنان لا يعادل الحياة القومية والفكر المستفيضين فى مثل عصر سوفوكليز أو عصر شيكسبير. ولكنه علاوة على كونه قد يكون وسيلة اعداد لامثال تلك العصور فانه فى الواقع يهيئ جوا حافزا ومساعدا له قيمة كبيرة، ومثل هذا الجو من المعرفة الكثيرة الجوانب والجهد الأدبى الانتقادى فى المانيا قد وجدهما جيتى فى المانيا حينما عاش وعمل، ولم يكن هناك توقد قومى للحياة وتوهج فكرى مثلما كان فى اثينا فى عهد بركليز، أو فى انجلترا فى عهد الملكة اليصابات، وكان هذا هو مصدر ضعف الشاعر ،

ولكن كان هناك نوع من المعادلة له، وذلك لوجود ثقافة كاملة وتفكير طليق قام به عدد كبير من الالمانيين ، وكان هذا هو ناحية القوة فى الشاعر، وفى الربع الأول من هذا القرن (القرن التاسع عشر) لم يكن فى انجلترا توهج قومى للحياة والفكر مثلما كان لنا فى عهد اليصابات أو ثقافة وقوة من المعرفة والنقد كما كانت الحالة فى المانيا ، ولذلك كانت القوة الخالقة للشعر ينقصها لكى تنجح النجاح التام المواد والقاعدة، ولقد حرمت من تفسير للحياة شامل مستوعب.

ويرى أرنولد ان الثورة الفرنسية التى حركت الخواطر واثارت النفوس من اعماقها لم تنتج أدبا يعادل الأدب الذى انتجه عصر ثورة الخواطر ويقظة النفوس فى اليونان أو فى عصر الاحياء، وقد يبدو ذلك غريبا، ويعلل أرنولد هذه الظاهرة بان الثورة الفرنسية أخذت اتجاها يختلف فى جوهره عن ما حدث فى بلاده اليونان، وما حدث فى عهد الاحياء ، فقد كانت الثورة التى حدثت فى بلاد اليونان واليقظة الفكرية فى عهد الاحياء حركتين فكريتين روحيتين خالصتين ، اما الثورة الفرنسية فانها سارت فى اتجاه سياسى عملى، ويرى أرنولد أن الحركة التى قامت فى فرنسا فى ظل النظام

القديم السابق للثورة فيما بين سنة ١٧٠٠ و١٧٨٩ كانت اقرب شبيها بحركة عهد الاحياء من عهد الثورة الفرنسية ، وأن فرنسا فى عهد فولتير وروسو اثرت فى عقل اوروبا أكثر من تأثيرها فى عهد الثورة.

والنقد فى رأى أرنولد بمعناه الواسع هو فى جوهره محاولة معرفة أحسن ما يعرفه الناس، وخير فكر فى العالم، بغير نظر الى الناحية العملية والسياسية وما الى ذلك من هذا القبيل، ويعيب أرنولد على معاصريه انهم لا ينسون الاعتبارات العملية والاهداف السياسية عند اقترابهم من الأفكار ، ومحاولة وزنها وتقديرها.

ويؤكد أرنولد أن النقد لكى يسير فى الطريق السوى، ويؤثر تأثيره المجدى لابد له ان يسمو على الاهداف والاغراض، ويتحرى النزاهة التامة، والسبيل الى ذلك هو الابتعاد عن النظرة العملية الى الأشياء ، وان نفسح المجال للعقل ليتناول الأمور فى حرية تامة دون أن تشغله الاهداف السياسية أو الاغراض العملية التى يعلق عليها الناس كبير الاهمية، ويكرر أرنولد أن وظيفة النقد ان يعرف خير ما يعرف، وخير ما فكر فيه

الناس، وحينما يذيع النقد ذلك يخلق تيارا من الأفكار الصادقة الطريفة، وعلى النقد ان يقوم بهذا العمل خالص النية معرضا عن كل الاهداف العملية، واذا خالف النقد هذا المنهج خان رسالته، وتنكر لطبيعته، واضاع الفرصة المهيأة له، ويقول أرنولد أن سبب تخلف النقد في عصره هو فرط تعلقه بالاعتبارات العملية، وانه بذلك يخدم اهدافا خارجة عن منطقة تخصصه ، ويضرب أرنولد مثلا لذلك النقد الذي كان يظهر في المجالات الإنجليزية المنتمية إلى مختلف الأحزاب السياسية فقد كان يظهر مشوبا بالنزعة السياسية الغالبة على الجريدة أو المجلة التي تنشره وتذيعه، وأشار في هذا الصدد الى النقد الذي كان يظهر في مجلة ادنبره المشهورة أو الكوارتلي رفيو التي كانت تعبر عن رأى المحافظين الانجليز، وغيرهما من المجلات والجرائد الحزبية.

ويشعر أرنولد بان الناس قد تستنكر هذه الصفة التي يحاول الصاقها بالنقد ، وهي القدرة على التجرد التام، وترى ان هذه الفضيلة الهندية قد تعوق حركة النقد وتجعله غامضا بطيئا، وهو يرى ان الامر قد يكون كذلك ولكن هذا هو السبيل الوحيد الى النقد الحق، ولن

تستطيع ان ترى الأشياء على حقيقتها وفي واقع أمرها الا إذا فعلت ذلك، ولا ينكر أرنولد ان الأغلبية الكبرى من الناس لن تتملكها الحماسة التي تدفعها الى محاولة معرفة الأشياء كما هي في ذاتها ، وان الافكار الناقصة ترطبها وتقنعها، ومعنى هذا ان الذين يحفلون برؤية الاشياء على حقيقتها هم القلة النادرة، ولكن هذا الاعتراض لا يزعج أرنولد ، لان هذه القلة متى عقدت العزم على القيام بعملها فان الأفكار الصحيحة تجد مجالها وتشق طريقها، ومتى ابى الناقد ان يعير نفسه لخدمة وجهة نظر الرجل العملي واحتفظ بثباته وتماسكه فانه يستطيع بذلك ان يودي خدمة للرجل العملي، ومتى تحرى الناقد الاخلاص التام في متابعة مهمته، والسير في طريقه، واقنع الرجل العملي باخلاصه في رسالته ، فانه يتمكن بذلك من التغلب على سوء الفهم الذي يتهدده من الحين الى الحين، والناقد في بلاد الانجليز في عصره معرض في رأيه لسوء الفهم في أغلب الأوقات لان الناس هناك بوجه خاص لا تميل الى ادراك أنه بدون التناول النزيه للأشياء لا يمكن الوصول الى الثقافة والاهتداء الى الحق ، واستغراقهم في المسائل العملية يجعلهم يألفون استمداد الأفكار من

تلك الحياة وعملياتها ويرون أن من العبث محاولة الوصول إلى الحق والثقافة من طريق آخر، ويستشهد بكلمة جيتي «ان العمل سهل والتفكير صعب» ليؤيد وجهة نظره.

وفي الفصل الثاني من فصول الجزء الاول يتحدث أرنولد عن تأثير الاكاديميات الادبية ويذكر ان الاكاديمية الفرنسية بدأ تكوينها في عهد الوزير الخطير الكاردينال ريشليين، وكان قد سمع ان ثمانية أو سبعة من المعنيين بالأدب كونوا عصبة لبحث المسائل الأدبية، وتبادل الرأي فيها سنة ١٦٢٩، وكان ريشليين بطبيعته محبا للأدب والثقافة، فهمه ما سمعه، ووجدها فرصة لاحت له ليخدم الأدب وينهض بمستواه، فسألهم هل يوافقون على ان يصبحوا هيئة عامة يلتقي اعضاؤها في اجتماعات منظمة، فوافقوا على ذلك في شئ من التردد، لانهم كانوا في ريب مما يريده بهم هذا الوزير المرهوب السطوة، وتردد البرلمان الفرنسي في الموافقة على وجود هذه الهيئة خشية ان يكون هناك هدف آخر سياسي من وراء وجودها، ولكن الدافع الحقيقي لريشليين كان الحرص على تهذيب اللغة الفرنسية، وتثبيت قواعدها وأصولها، وجعلها قادرة على مواجهة

التطور الفني والعلمي، ولا شك في ان الاسهام في جعل اللغة القومية مسلمة من العيوب بريئة من الاخطاء يعين على صياغة المصطلحات العلمية والفنية الدقيقة الوافية، ويصون الحياة الفكرية من البلبلة والاضطراب، وعظم بعد ذلك أمر الاكاديمية الفرنسية، وأصبح اعضاؤها اربعين عضوا من الشخصيات البارزة في مختلف المجالات العلمية والفنية، واستطاعت ان تقوم بدورها المأثور في الحياة الثقافية الفرنسية، وكانت مؤلفات اعضاء الاكاديمية انفسهم تعرض على بساط البحث وتناقش مناقشة جادة قبل تقديمها للطبع، ويمكن ان تعرض عليها مؤلفات كتاب آخرين اذا ارادوا ذلك، وفي هذه الحالة كانت الاكاديمية تتناول الكتب المقدمة بالنقد، وتبدي رأيها في صلاحيتها أو عدم صلاحيتها، ويرى أرنولد ان ما ينقص اللغة الانجليزية من الدقة في استعمال الالفاظ والاسفاف الذي قد يلحظ في بعض اساليب النثر الانجليزي مرجعهما الى عدم وجود اكاديمية في انجلترا تتولى حماية اللغة من الابتذال وسوء الاستعمال، وتحافظ على نضارتها واصالتها، وتوجد المعايير التي يرجع اليها، ويكون حكمها فيصلا في المسائل اللغوية، وبهذه الطريقة لا تتعرض اللغة

للشذوذ والاعتساف والتورط فى الاخطاء ، وقد اوجدت الاكاديمية الفرنسية معايير محترمة للاجادة وتحرى الصحة، ورأيا يوثق به ويرجع اليه فحد ذلك من فوضى الاساليب، والهبوط بمستوى الاجادة فى التأليف، ويتصدى أرنولد لنقد بعض عبارات واردة فى اسلوب بعض كبار المؤلفين من معاصريه وغير معاصريه ، ومنهم جيرمى تيلور وأرديسن وارمنديبرك وراسكين ليدلل على ما تسرب الى اسلوبهم من مبالغات لا طائل وراءها ، ومخالفة للسداد وانحراف عن الذوق المصقول، ويعزو ذلك كان الى عدم وجود اكاديمية تقوم على حراسة اللغة ومقاومة الشذوذ والانحراف .

وفى الفصل الذى عقده أرنولد للحديث عن الأديب الفرنسى موريس دى جيران يقول عن الشعر «قوة الشعر العظيمة فى قدرته على التفسير، ولست اقصد بذلك قدرته على ان يصور لنا تفسيرا للغز الكون باللون الأسود واللون الابيض، وانما أقصد قدرته على ان يتناول الأشياء بحيث يوقظ فى نفوسنا احساسا بها مكتملا اكتمالا عجيبا وجديدا يزيد علاقاتنا بها توثيقا، وحينما يستيقظ فى نفوسنا هذا الاحساس بالأشياء الخارجة عنا نشعر باننا على اتصال بجوهر طبيعة هذه

الأشياء وانها اصبحت لا تبلبل خواطرنا، ولا تضغط علينا وتستبد بنا ، واننا قد وقفنا على سرها وتوافقنا معها، وهذا الشعور يهدئ نفوسنا ويريحها أكثر من أى شئ آخر، والشعر فى الواقع يفسر لنا الحياة بطريقة أخرى الى جانب ذلك، ولكن أحدى طريقتيه فى التفسير وممارسته اسمى قدرته ايقاظ هذا الاحساس فى نفوسنا.

وهذه الميزة فى رأى أرنولد هى مصدر تفوق التفسير الشعرى على التفسير العلمى، فالتفسير العلمى لا يثير فى نفوسنا الاحساس الصميم بالأشياء كالتفسير الشعرى، فهو يستجيب للملكة محدودة لا للانسان فى مجموعة، وليس العلامة لينيه أو كافندش أو كيفييه هم الذين يجعلوننا نعرف المعنى الحقيقى للحيوان أو الماء أو النبات، ويكشفون لنا سرها، وانما الذى يستطيع ذلك هو شكسبير ووردزورث وكيتس وأضرابهم.

وفى مدى معرفتى أن أرنولد كان فى طليعة النقاد البريطانيين الذين قدموا الشاعر الالمانى هاينى لقراء اللغة الانجليزية، وهو يعده أعظم خلفاء جيتى أهمية فى

الأدب الالماني، وانه السائر على نهج جيتي، والمتمم لجهوده الأدبية ، وان كان هو نفسه يقرر ان هيني لم يكن يسلم بهذه الأبوة، برغم انه كان لا ينكر عبقرية جيتي كما فعل بعض الذين انتقضوا قدره، ويرى أرنولد ان جيتي كان من محرري الشعب الالماني، وان هيني هو خليفته في هذا التحرير.

ولكن ما الذي يقصده أرنولد هنا بالتحرير؟ يقول أرنولد في حديثه عن هيني «في العصور الحديثه الكثير من النظم والاحوال الواقعية الموطدة، والعقائد الدينية الحائزة للثقة، والعادات والأحكام الموروثة من عصور ليست حديثة، وفي نطاق هذا النظام كان على الحياة في تلك العصور الحديثة ان تتقدم، ولكنها كانت تدرك ان هذا النظام ليس من خلقها وانه لا يلائم مجال ملاءمة محكمه مطالب حياتها العملية وانه بالقياس اليها قوامه التعود لا العقل، وايقاظ هذا الادراك هو ايقاظ الروح الحديثة ، وقد استيقظت الروح الحديثة في كل مكان » وجيتي في رأى أرنولد في طليعة موقظي الروح الحديثة أو بلفظ آخر محرري الانسانية، وكذلك كان هيني في رأى أرنولد، وهذه هي صلة النسب التي يراها أرنولد بينهما، وينقل عن جيتي قوله «عن طريقي عرف شعراء

الالمان أنه كما ان الانسان يجب أن يعيش من داخله الى خارجه فكذلك الفنان يلزم ان يعمل من الداخل الى الخارج ، وبذلك يستطيع ان يبرز شخصيته».

وقد اختلفت طريقة هيني في التحرير عن طريقة جيتي، فطريقة جيتي كانت التحرير المتريث البطيء، أما طريقة هيني فكانت الحرب المكشوفة وكان سلاحه في المعركة ذلك السلاح الرهيب، وهو القلم، وقد امضى حياته في غمار المعركة ، وكانت هذه المعركة معركة حياة وموت مع ما اسماه أرنولد «الفلسطينية» قاصدا به عامية النفس وجمود الفكر وبلادة الحس ونقص الثقافة، وكان هيني يفضل الفرنسيين على الالمان ويرى الفرنسيين الشعب المختار الحديث وانهم أكثر قابلية وتفتح للأفكار الجديدة من الالمان، وأقل منهم خضوعا للروتين، واكثر ميلا الى التغير ، ويقول أرنولد «وهذا يفسر كراهية هيني للانجليز، ومن مأثور اقوال هيني التي نقلها عنه أرنولد قوله «قد يستقر بي المقام في انجلترا اذا لم أجد هناك شيئين ، دخان الفحم والانجليز، فاني لا أطيق كليهما» وكان اشد ما ينعاه هيني على الانجليز ضيق الافق وعدم قبول الأفكار،

ومحب التجديد الفكرى فى انجلترا يشعر بان السماء فوقه من النحاس والحديد.

وفى الفصل الخاص بالعاطفة الدينية الوثنية والعاطفة الدينية فى العصر الوسيط يوازن أرنولد بين نشيد تيوكريتاس ونشيد القديس فرنسيس فيقول «شعر نشيد تيوكريتاس يتناول الدنيا حسب مطالب الحواس ، وشعر نشيد القديس فرنسيس يتناول الدنيا حسب مطالب القلب والخيال ، وشعر الأول يصف الدنيا حسب مظهرها الخارجى ويتناول الجانب الحسى منها، أما الثانى فيتناول داخل الدنيا والجانب الرمزى منها، والأول يتقبل من الدنيا ما يتيح اللذة والمتعة، والآخر يقبل الدنيا بأجمعها حسنة ولينة مثيرة للألم ومانحة للابتهاج ، وذلك كله عندها سواء، ولكن باجمعه قد اشتملت عليه قوة العاطفة الروحية، وكله خاضع لقانون المتسامى على الحس والذى مكانه فى الروح».

ويقول فى هذا الفصل ، وربما كان هذا القول من خير ما قاله «لا أريد ان أقطع بشئ وأعد حكمى مرجعا، فغن النقد العظيم قائم على ان ينحى الانسان نفسه عن طريق، ويترك الحكم للانسانية».

وفى هذه المجموعة فصل عن الحكيم الفرنسى جوبير، وفصل عن الفيلسوف اسبينوزا وفصل عن الامبراطور الفيلسوف مرقص اوريليوس، وكان من أحب الشخصيات الى أرنولد، وقد سجل تأملاته الأخلاقية وهومشرف على حركات الجيش الرومانى فى إقليم داسيا، وقد وقعت فى عهده بعض حوادث الاضطهاد للمسيحيين ، شقى منها بوليكارب فى أزمير، ولكن أرنولد يقول أن الامبرطور كان يجهل ذلك، وانه مات سنة ١٨٠ ميلادية دون ان يرى موعظة الجبل وانجيل يوحنا، وهو فى تأملاته لم يذكر قط المسيحيين، ولم يعرف شيئا عن تعاليم السيد المسيح، ولو انه عرفها لأهمته وعنى بها، وكان مثل المؤرخ تاسيتوس الذى سبقه بقرن يرى أن المسيحيين جماعة غامضة الشأن من اليهود، وانهم متعصبون متشددون فى تعصبهم ، ومحتقرون للقانون والعقل، وانهم اعداء الجنس البشرى، وقد عرف الامبراطور قسطنطين فى القرن التالى الحقيقة، واعتنق المسيحية، وقد كان مرقس اوريليوس اسمى كثيرا من الامبراطور قسطنطين، وفيه تتمثل الاخلاق الوثنية فى اسمى ما بلغته من مراحل السمو، كما تتمثل فى أدنى مراحلها فى بترونياس،

ولقد قال افلاطون ان العالم لا يكمل حتى يصبح الملوك فلاسفة أو يصبح الفلاسفة ملوكا، ولقد كان مرقس أورليوس فيلسوفا حقا وروائيا صادقا، ويقول عنه أرنولد «قد بقي مرقس اورليوس الصديق الخاص الذي يطمئن اليه اصحاب العقول الراجحة والذين يحاسبون أنفسهم، وهم مع ذلك انقياء القلب من الادران نزاعون الى الكمال ... وهو لا يعطى اصحاب هذه النفوس كل ما يتوقون اليه، ولكنه يعطيهم الكثير، وما يعطيه لهم يستطيعون قبوله، ومع ذلك فان معظم حبهم له ليس لما أعطاهم! وانما هم يحبونه لتلك العاطفة التي تعير صوته لهجة مؤثرة، ولانه هو لذلك يتطلع مثلهم لشيء لم يظفر به، فما أقرب هذا الرجل مضطهد المسيحيين الى المسيحية!».

نماذج من الكتاب :

ظهر الجزء الثاني من فصول أرنولد في النقد بعد موته في سنة ١٨٨٨ وبه كلمة افتتاحية بقلم لورد كولردج، وكان أرنولد نفسه قد جمعها بنفسه قبل وفاته، وحذف منها ما وجده غير جدير بان يكون ضمن المجموعة، وفي أول هذه المجموعة الفصل الذي كتبه

عن «دراسة الشعر» وهو يقول في مطلع هذا الفصل «مستقبل الشعر عظيم، لان الشعر الجدير بهذا الحظ العالي سيجد فيه شعبنا كلما مضى الزمن مستقرا أبقى وأصلح، فليست هناك عقيدة لم تهتز قواعدها، وليس هناك مذهب لم يتسرب اليه الشك، ويقبل بدون مراجعة، وليس هناك تقليد من التقاليد الا وهو مهدد بان تزول معالمه، وقد استحالت دياناتنا الى مادة في الواقع، هذا الواقع المزعوم، وقد وقفت عاطفتها على الواقع، وهذا الواقع يخذلها الآن، ولكن الفكرة في الشعر هي كل شيء والباقي عالم من الوهم، الوهم المقدس، والشعر يجعل عاطفته موكلة بالفكرة، والفكرة هي الواقع، واقوى جزء في دياناتنا اليوم هو شعرها المغيب عن شعورها».

وقد استهل أرنولد هذا الفصل عن الشعر بهذا الرأي الذي كان قد سبق له ان كتبه في مقدمة لكتاب عنوانه «مقدمة عامة للشعراء الانجليز ليبين اهمية الشعر في عصره، وهو يشير في خلال ذلك الى الصراع العنيف الذي وقع بين العلم والدين في القرن التاسع عشر، وكان له اثره في هز اركان الاصول الدينية، وطغيان الشكوك على التاليد والعادات المتصلة

بهـا، وكان أرنولد يرى ان الشـعـر هو الجـديـر بان يقوم مقام العقيدة التى نالت منها الشكوك واضـعفت الثقة بها، وان الشعر خليق بالقيام بهذه المهمة العظيمة، فهو الذى يسـتطيع ان يملأ بحق الفراغ الذى تركه الدين، ومستقبل الشعر فى هذه الحالة أجل شأنا وأسمى غاية مما يتصوره الكثيرون ، ويقول أرنولد «كلما مر الزمن سيتضح لنا أكثر فأكثر ان علينا ان نرجع الى الشعر ليفسر لنا الحياة، ويهون علينا الشدائد، ويشد من عزمنا وبدون الشعر سيبدو علمنا ناقصا، وأكثر ما نعده اليوم دينا وفلسفة سيحل محلها الشعر، وأقول ان العلم يبدو ناقصا بدون الشعر، وقد اجاد وردزورث وأصاب حينما قال عن الشعر، انه التعبير الحماسى الذى يبدو على محيا العلوم جميعها، وماذا يكون المحيا الخالى من التعبير؟ ويقول وردزورث كذلك «ان الشعر هو نفس المعرفة جميعها وروحها الأشف»، وديانتنا التى تعرض مثل هذه الادلة التى يستند اليها العقل العام اليوم وفلسفتنا التى تزهو وتفخر بتفكيزاتها عن السببية والكائن النهائى واللانهائى اليست جميعها ظلالا وأحلاما ومظاهر زائفة للمعرفة؟ وسيأتى اليوم الذى سنعجب فيه من نفوسنا لأننا وثقنا بها واطمأننا اليها،

ولاننا أخذناها مأخذ الجد، وكلما استبان لنا خواؤها زاد تقـديرنا لنفس المعـرفـة وروحـهـا الأشف اللذين يقدمهما لنا الشعر».

«ولكن هل قدر هذا المصير العظيم للشعر جميعه ؟ يقول أرنولد ان الشعر الجدير بهذا المصير والذى يستطيع القيام بهذه الرسالة السامية لابد ان يكون طرازا عاليا من الشعر ، ولابد أن نعود انفسنا على المعايير العالية والاحكام الدقيقة المتشددة، وينقل عن الناقد الفرنسى سانت بيف ما رواه عن نابليون بونابرت وهو ان احد الناس وصف رجلا فى حضرة هذا العاهل الجبار بقوله «انه دجال فقال له نابليون ليكن دجالا كما تريد ولكن فى أى مكان لا يوجد الدجل ؟ ويرد سانت بيف على قوله العاهل الجبار بقوله نعم، فى السياسة وفى فن حكم الناس قد يكون هذا حقا، ولكن فى نظام الفكر والفن فان المجد والشرف الخالد فى ان الدجل لن يجد مدخلا، وهذا هو مستقر حصانة هذا الجزء النبيل من حياة الانسان ويعجب أرنولد بهذه الكلمة ويوصينا بالاستمساك بها، فالشعر وهو فى رأى أرنولد مزيج من الفكر والفن لا يجد الدجل اليه منفذا، ولا يدنس حرمه أو يشوب قداسته، ومن شأن الدجل ان يخلط الجيد

بالرديء والعالي بالوضيع والصواب بالخطأ أو يزيل الفروق بينها، وليس هذا بالمسموح به في الشعر كما يرى أرنولد لأن تمييز الجيد من الرديء والصحيح من الزائف والسليم من المدخول له اهمية كبيرة ، وستجد الانسانية في الشعراء العزاء وما يرد عليها عازب الامن والطمأنينة ، ولكن قوة هذا العزاء ومدى هذه الطمأنينة سيكونان متعادلين مع قدرة هذا الشعر على نقد الحياة، وقدرة الشعر على نقد الحياة ستكون متناسبةمع سمو الشعر وامتيازه، فكلما حلق وارتفع مستواه كان أقدر على نقد الحياة، وقدرة الشعر وامتيازه، فكلما حلق وارتفع مستواه كان أقدر على نقد الحياة، والشعر الجيد هو ما تحتاج اليه الانسانية ، وهو في رأى أرنولد منقطع النظير في ادخال السرور على نفوسنا وتقوية عزائمنا.

ويقدر أرنولد الشعر بما نستمده منه من قوة وما يدخله على نفوسنا من سرور وابتهاج، ويرى ان هذا التقدير الصحيح للشعر قد يحل محله التقدير التاريخي والتقدير الشخصي، وكلاهما تقدير زائف، فقد يعنينا شاعر أو قصيدة من الناحية التاريخية، وقد نحفل بهما على اسس شخصية تتصل بنفوسنا، وسير تقدم لغة

الامة وفكرها وشعرها شائق الى حد كبير ، واذا نظرنا الى عمل الشاعر بوصفه مرحلة في سير هذا التقدم فقد نعطيه بذلك أهمية أكثر مما يستحق ونبالغ في تقديره، وهذا هو عيب التقدير التاريخي، وقد نحفل بالشاعر أو بالقصيدة على اسس خاصة بشخصيتنا، وميولنا الشخصية، وظروفنا الخاصة لها تأثير شديد في تقديرنا للشعر، وقد يجعلنا هذا التقدير تعطي للشعر اهمية ليست له ونبالغ في امتداحه.

وقد تميل بنا الدراسة التاريخية للشعر الى ان نقف طويلا عند شعراء كانت لهم فيما سلف من الزمان شهرة مدوية ومكانة عالية، ولكنهم أصبحوا بعد ذلك غامضي الشأن ونعطيهم أكثر من حقهم، ونقيم حولهم هالة من التمجيد تجعلنا لا نبصر نواحي ضعفهم ، ومن شأن هذه النظرة انها تصرفنا عن فحص الأثر الفني واختباره، ومعرفة كيف تم تكوينه واتسقت اجزاؤه، وتفرض علينا اتخاذه نموذجا يحتذى ، ولا يمكننا هذا الاعجاب التقليدي من الاهتداء الى الأخطاء ونعرف العيوب ، وينقل أرنولد عن الناقد الفرنسي شارل هيريكولت قوله عن مثل هذا النقد «أنه لا يمثل لنا انسانا بشريا، وانما يطالعنا بآله غير متحرك قد استقر

على عرشه بين اعماله الكاملة مثل جوبيتر في جبل الاولب، وسيكون من المتعذر على الطالب الشاب الذي يعرض عليه مثل هذا العمل على مثل هذا المدى ان يصدق أنه لم يخرج مكتملا من هذا الرأس المقدس».

ويستدرك أرنولد ليقول ان الأمر متوقف على طبيعة العمل الكلاسيكي، فبعض هذه الأعمال مشكوك في قيمته، ومثل هذا العمل علينا ان نفحصه ونغربله، وبعضها زائف ومثل هذا العمل الزائف يرفض ويستبعد ولكن اذا كان العمل كلاسيكيا بحق واذا كان من الطراز الكلاسيكي الممتاز فان علينا ان نتعمقه ونستمتع به، ونقدر بعد المدى بينه وبين غيره من الاعمال التي لا تسمو الى مستواه، وهذه هي الفائدة التي تعود علينا من دراسة الشعر، وكل شيء يعوقها يضر بنا كما يرى أرنولد ، وهو يوصينا بان نقرأ الآثار الكلاسيكية وعيوننا مفتوحة، ودون ان يعمي أبصارنا الاعتقاد بالخرافات، وان نميز الجيد فيها من الرديء ، وندقق في تقويمها ، واتباع هذا المنهج يجعلنا أقدر على الاستمتاع بالشعر الممتاز العالي الطبقة، وقد يقال اننا كلما عرفنا الكثير عن الأثر الأدبي الكلاسيكي ازداد استمتاعنا به، ولكن أرنولد لا يقر هذا الرأي لان

الاستمتاع الحق متوقف على قيمة العمل الفني في ذاته، وبعض الآثار الادبية الكلاسيكية قد يكون لها قيمة من الناحية اللغوية أو من الناحية التاريخية ولكن هذا لا يضمن امتيازها من الناحية الفنية الخالصة.

ويؤثر أرنولد ان يقدم أمثلة من الشعر الذي يستجيده، وعنده ان جودة الشعر متوقفة على الموضوع والمادة ثم على الأسلوب والنسق، وهو يقول في ذلك «يبذل النقاد جهدا عظيما في بيان السمات التي تميز الشعر العالي الطبقة مجردة، وخير من ذلك عندي الرجوع الى أمثلة معينة، ويسترشد برأي ارسطو الذي ابداه في ملاحظته العميقة عن تفوق الشعر على التاريخ، لان الشعر ينطوي على حق أسمى وجدية أعلى، ويقول أرنولد ان احسن الشعر ما تضمن بدرجة عالية الحق والجدية، وهو يرى اننا قد نتحدث عن مادة الشعر وموضوعه ، وعن أسلوبه ونسقه، كأنهما منفصلان، ولكنهما في الواقع غير منفصلين ، أي ان الشعر الحافل بالمعاني الصادقة لابد ان يكون في الوقت نفسه جيد الاسلوب بارع الأداء، والشعر الذي لم يحسن اختيار الفاظه وتنقصه الحركة مجرد من الحق والجدية، ويقول أرنولد ان الشاعر الانجليزي شوسر

كان فى شعره الصدق الشعرى، واسلوبه رائع، ولكنه تنقصه الجدية الموجودة فى شعر هوميروس ودانتى وشيكسبير.

ويقول أرنولد عن الشعر فى الفصل الذى تناول فيه أدب وردزورث، «الشعر هو أكمل حديث للانسان ، وهو الحديث الذى يكون فيه الانسان أقرب ما يكون الى النطق بالحق وليس بالشئ القليل ان ينجح الانسان نجاحا متفوقا فى الشعر ،و وتقدير النجاح فى الشعر يستلزم الكثير، ومن أصعب الامور الانتهاء الى حكم عام أكيد فى الشعر، ويستغرق ذلك أطول وقت» ويشير أرنولد فى هذه المناسبة الى سوء التقدير الذى لقيه شعر شيكسبير من النقاد الفرنسيين فترة طويلة من الزمن.

ويقول فى موضع آخر من هذا الفصل «اذا كان ما يميز اعظم الشعراء هو تطبيقهم العميق القوى للافكار على الحياة ، وهو ما لا ينكره بالتأكيد أى ناقد مجيد، فان اضافة لفظة اخلاقى الى كلمة الافكار لا يكاد يحدث أى فرق، لأن الحياة البشرية نفسها اخلاقية بدرجة غالبة».

ويتخذ أرنولد ذلك مدرجة الى تأكيد رأيه فى ان الشعر فى أساسه نقد للحياة، وان عظمة الشاعر قائمة على تطبيق الأفكار على الحياة فى صورة جميلة وقوية، أى على مسألة كيف نعيش، ومسألة الاخلاق يتناولها الناس كثيرا بطريقة ضيقة زائفة، ويقيدون انفسهم بنظم فكرية واعتقادات انتهى يومها ، ولذلك نجد فى بعض الاحيان جاذبية فى الشعر الذى يثور على هذه الاوضاع مثل قول عمر الخيام فى احدى رباعياته «لنستعض فى الحانة عن الوقت الذى اضعناه فى المسجد»، ولكن الشعر الذى يثور على الأفكار الاخلاقية هو شعر يثور على الحياة نفسها، والشعر الذى لا يبالى بالأفكار الاخلاقية هو كذلك شعر لا يبالى بالحياة نفسها.

وفى الفصل الذى كتبه عن بيرون يصحح أرنولد ما تبادر الى اذهان بعض قرائه حينما قال «ان الشعر نقد للحياة» فقد ظن بعض الناس ان النثر يختلف عن ذلك وانه شئ آخر ، ويقول أرنولد انه حينما قرر أن الشعر نقد للحياة كان يقصد الأدب بوجه عام لا الشعر وحده بوجه خاص، فغاية الأدب جميعه وهدفه اذا تأملناه بعناية ليس سوى نقد الحياة، وبطبيعة الحال

يراعى أن يكون نقد الحياة فى الشعر وفقاً لقوانين الحق الشعرى والجمال الشعرى.

وقد كان أرنولد فى طليعة النقاد الذين قدروا مزايا الروائيين الروسيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ففى الفصل الذى كتبه عن تولستوى يقول «الروائى الروسى يملك السحر الذى يجعل أسرار الطبيعة الانسانية الداخلية والخارجية سواء فى الاشارة والسلوك أو فى الفكر والشعور تكشف عن نفسها فى طواعية وطيبة خاطر» وهو يلاحظ ـ واحسبه محقا فى ملاحظته ـ ان الشعر هو تاج وان الروسيين ليس لهم شاعر كبير (يريد أرنولد ان يقول انهم ليس لهم شاعر من طراز شيكسبير وهوميروس وجيتى واضرابهم) ولكنهم فى الأدب الروائى المجلين فى الميدان، وعندهم الكثيرون من الروائيين الكبار وفى طليعتهم تولستوى الذى اختصه بهذا الفصل، وهو يرى ان روايته المشهورة «أنا كارنين» أكثر اثارة للاهتمام من كتاباته فى الموضوعات الدينية، ويوازن فى ايجاز بينها وبين رواية «الحرب والسلم» ويرى أن رواية أنا كارنين أكثر تمثيلاً لتولستوى لأنه تناول فيها الحياة المعاصرة له، بخلاف رواية الحرب والسلم التى اعتمد فيها إلى حد

ما على الوثائق التاريخية والمذكرات الشخصية التى كتبها من عاصروا فترة أحداث تلك الرواية وبخاصة فترة غزو نابليون لروسيا، وأرجح أن النقد الحديث يجعل لرواية الحرب والسلم المكان الأول بين مؤلفات الكاتب الروسى العظيم، ويقول أرنولد عن رواية أننا كارنينا «الحق أننا لا ننظر إليها باعتبارها عملاً فنياً، وإنما نتناولها باعتبارها قطعة من الحياة، وهى فى الواقع قطعة من الحياة والمؤلف لم يبتكرها ويضم بعضها إلى بعض وإنما رآها بعينيه، ولقد وقعت حوادثها أمام عينه الداخلية» وهو يجعلنا فى هذه الرواية نعيش بين أهل موسكو وسان بطرسبرج ويتحدث أرنولد عن الكثير من الشخصيات الواردة فى الرواية وكيف يجعلنا تولستوى بفنه الفائق على بينة من أمرهم، ودراية تامة بأحوالهم النفسية، وسماتهم الأخلاقية.

ويختم أرنولد الجزء الثانى من فصوله فى النقد بفصل عن هنرى ودريك أميل المفكر السويسرى وصاحب اليوميات المعروفة، وهو يشير فى هذا الفصل إلى أن الناقد الفرنسى أدمون شيريه قد غالى بالإشادة بيوميات أميل وملكاته الأدبية والفلسفية، ويوازن بين



قطعة مختارة من كتابات أميل فى الوصف وقطعة كتبها أوبرمان، ويفضل وصف أوبرمان للطبيعة على وصف أميل لها، رغم أن أميل كان أسمى ثقافة من أوبرمان، وهو يرى إن كتابات أميل تنم على أنه كان صاحب مكانة ممتازة فى النقد الأدبى، وينقل بعض أحكام أميل على بعض المؤلفات الأدبية التى ظهرت فى عصره وبعضها ظهر قبل عصره ليؤيد رأيه.

ولأرنولد مؤلفات أخرى غير دواوين الشعر وفصول النقد الأدبى منها كتاب «الثقافة والفوضى» الذى ظهر سنة ١٨٦٩ وكتاب «الأدب والعقيدة» الذى ظهر سنة ١٨٧٣ وكتاب «الله والكتاب المقدس». وقد ظهر سنة ١٨٧٥ . ويمكن تقسيم كتاباته إلى ثلاثة أقسام القسم الأول الأشعار التى نظمها والقسم الثانى فصوله فى النقد الأدبى والقسم الثالث ما كتبه فى الموضوعات الدينية.

ويقول عنه الناقد سكوت جيمس «أرنولد لم ينقد الكتب فحسب، وإنما علم الآخرين كيف ينقدون، وقد وضع مبادئ وإن لم يتبعها دائماً، ولا عذر لأى إنسان بعد قراءة فصوله فى النقد فى أن «لا يصير ناقداً».

الإيداع بدار الكتب ٥٠٣٨/١٩٩٤

I.S.[illegible] 977 [illegible] 3874-6